الدين

الله، والتكليف، والمعاد

تفسير اجمالی للدين

اثبات وجود الله بالطريقين النفسی والخارجی

www.ostad-jafari.com

حقيقة الدين

لسنا بصدد استعراض لغوى للدين فى هذا المبحث كما اننا لا نهتم هنا بدراسة خصوصياته الفرعية من الطقوس والمناسک الجزئية التى يتضمنها كل دين، وكذلک لا نحتاج فى اثبات ضرورة الدين الى التمسک بعوارض غير اصيلة كالسياسات اليومية التى‌تسرع الى الزوال حسب تطور الازمنة ومقاصد الرجال، كعدم اعتدادنا بما توحيه مستمسكات أخرى من كون الدين مجعولاً للافكار الضعيفة، وغيرها من الامور التى تشوه الحقائق، بل نقصد بالبحث عن حقيقة الدين ما يجده الانسان فى غريزته الاولية ضرورياً قبلما تتدخل فيها أوصاف ثانوية وعوامل عارضة من المحيط وغيرها. لقد عرف المفكرون من أولى الاديان وغيرهم الدين بأمور مختلفة لا ترجع الى الاختلاف فى الحقيقة ومن المظنون انها جميعاً تشير الى حقيقة فريدة: هى ضرورة الاعتراف بالمبدأ الاعلى الذى خلق الكون بعد ما لم يكن شيئاً، والاعتقاد بالتكليف ثم الايمان بالمعاد، وان الانسان سيواجه يوماً آخر مطلقاً لا يوجد فيه حاكم ومالک الا الله. هذا هو الدين الذى جاء فى تفسير اكثر المفكرين المتبنين للنحلة الدينية ونحن ايضاً نقبله ونبحث عنه تحليلاً وتأليفاً.

لقد يشتمل هذا التفسير على حقائق ثلاث لا بد ان نفهمها فهماً جديراً بها ثم نناقش ما يدعيه بعضهم من التنازع بين الدين والعلم والفلسفة لنرى هل يوجد هناک تنازع بين تلكم الامور؟ يمكن وضع الحقائق الثلاثة التى شملها التعريف حسب مايلى وهو الاعتقاد بـ: الله ـ أو الذات الواجب بنفسه الذى لا يسبقه عدم ولا يجرى عليه حال، وهو غير متناه فى ذاته وصفاته التى تساوقه كالعلم والحياة والقدرة، وان حذفنا من هذه الحقيقة اختلاف اللغات وتشتت الاشارات رأينا الكل متفقاً على اثباته. وعلى اى حال انه موجود حقيقى‌رأى الانسان التوجه اليه لزاماً لنفسه سواء أثبته أم نفاه أم شک فيه، وليس لهذا التوجه عامل طبيعى ولا نفسى حتى يقال أنه من ناحية الطبيعة الخارجية أو من مجعولات النفس وتجسيماتها الفارغة عن الحقيقة؛ ولا تعجبن من قولنا ان التوجه الى حضرته لزام نفسى للبشر وان نفاه أو شک فيه، فان الشک يحتاج الى موضوع يكون مشكوكاً فيه وكذلک النفى يحتاج الى موضوع يسلب عنه الوجود. فالتوجه الى المبدأ الاعلى يعتبر غاية ضرورية.

فأن شئت قلت: ان النافى والشاک انما ينفى أو يشک فى وجود حقيقة يثبتها المعتقد بوجودها، وهذا يعنى انه

www.ostad-jafari.com

قد تصور حقيقة ثم نفاها وشک فيها. وهذا التوجه يثبت الصانع المطلق بلا حاجه الى شيء زائد؛ لان التوجه المذكور لم يحصل من قبل الطبيعة المتغيرة المتطورة لانها فى تغير وحركة دائمة وكل نقطة منها فيزياوية كانت أو رياضية محدودة بما قبلها وما بعدها. والمبدأ الاعلى الذى توجه اليه الانسان منذ نشأته الاولى وسيتوجه اليه كذلک انما هو موجود غير متطور وغير متناه.

وكذلک لن يتاح للنفس جعل حقيقة غير متطورة وغير متناهية فانها انما تكتسب المعارف من الطبيعة الخارجية المتطورة المحدودة، فلا بد من ان يكون عامل التوجه الى الله هو المبدأ الاعلى. نجد هذه البرهنة الفطرية القيمة الواضحة لدى بعض العقول الجبارة حيث أخذت شكلاً معقولاً وأسلوباً قياسياً عند «ديكارت» وتبعه بعض العظماء الغربيين والشرقيين وقد تصدّى بعض الكتاب لنقدها وهدمها بامور تكشف عن عدم التوجه الى صميم البرهان وحقيقته الواضحة ونحن نذكر ما يقبل المناقشة منها:

قيل أولاً: من الممكن ان نأخذ جذور التوجه المذكور من الطبيعة الخارجية، والمأخوذ منها وان كان متغيراً ومحدوداً الا ان النفس هى التى ترفع التحديد والتطور والمادية فتجعل الموضوع المتوجه اليه ذاتاً عالماً غير متطور وغير متناه وذلک كالعدد حيث ان الموجود منه فى الخارج محدود لا محالة بيد أن للنفس أن تضيف اليه قطعات غير متناهية.

والمظنون ان هذا الاعتراض على البرهنة المذكورة اقوى ما شاهدناه من الاعتراضات، ولكننا نجزم بأنه سوف يزول عندما يهتم المتفكر بحقيقة الطبيعة الخارجية وبالنفس المستطلعة عليها والصلة القائمة بينهما، خذ الطبيعة وفكر فيها فانک تجدها اجساماً محدودة ذات كميات وكيفيات متعينة، ثم اضف اليها كلما شئت من الاجسام والمقادير، فهل تقدر على ان تجعلها لا محدودة؟ حينما ترى القانون الرياضى العام فى غاية البداهة يمنعک ان تجعلها غير محدودة ألا وهو ان الزائد على المحدود، محدود لا محالة، فانک اذا فرضت رقم العشرة واضفت اليها كل ما شئت من الاعداد كانت متناهية بلا ارتياب، لان العشرة محدودة، والمضاف اليها اذا طرحت عنه العشرة تنقص عنه لا محالة والكل يعلم بالضرورة ان التساوى والنقص والزيادة امور لا تلحق الا بالمحدودات.

قيل ثانياً: ومن الممكن ان تكون النفس هى التى خلقت موجوداً اعلى منها له اوصافه المذكورة، فحينئذ نقول ليس للنفس فى معارفها المعمولة عند المنكر فعل من تلقائها تخلقه بلا منشأ خارج عنها، وكل ما تفعله ويتصور البسطاء انه تلقائية محضة، لا بد له من عامل نصل اليه عند التحليل. وهناک توهم آخر يجعل التوجه الى الله والتصديق بوجوده نتيجة العجز عن ادراک الطبيعة واسرارها والكون وغوامضة، ويعد هذا التوهم عند

المفكرين شعراً فی عبارة فلسفية لا يستند الی الحقيقة المشهودة خارجاً لانه لو کان المفروض ان الباعث الی الاعتقاد بوجود الله هو العجز والضعف فلماذا وجد من الناس من أنکر المبدأ الاعلی واعترف بالعجز عن الوصول الی الطبيعة واسرارها. وکذلک العکس، هناک ملايين من الاقوياء علی اختلاف قدرتهم العلمية والملکية وقد رأوا انفسهم مسيطرين علی الکون وآفاقه ومع الوصف المذکور لم يروا بداً من التسليم بوجود المبدأ الصانع المطلق. اما سمعت قول القائل من بعض اعاظم العلماء والفلاسفة: انه لم يبق عنده ای مجهول فی الطبيعة واسرارها بحيث کان يزعم: لو أعطيت المادة والحرکة لخلقت الکون واجريت القوانين عليه، فهل تری هذا المفکر الجبار يعتقد بوجود الله بعجزه عن غوامض الطبيعة؟! نعم يمکننا ان نصدق بهذا التعليل ونعترف بأن الضعف هو الذی اوجب التوجه اليه، ولکن هل يوجدهناک قوی مالک لموته وحياته وعالم بما تکسبه نفسه غداً وبأنه لماذا خلق والی أين مصيره؟ ثم ما ذکرناه من عدم انتزاع التوجه الی الله عن الشؤون الطبيعية لم نقصد به ان الطبيعة لا تدلنا علی ذلک بل المقصود ان هذا التوجه لم ينشأ منها وان کانت الطبيعة موصلة الی المبدأ بطريق آخر سنبحث عنه. هناک ظاهرة نفسية اخری ولعلها اقوی الظواهر:

اعلم قبل أن تجد نفسک مضطربة: ان قيمة الاحتمال تتعيّن بحسب موضوعه، فلو احتملت انک لو دخلت الی مکتبتک لرأيت الکتاب الذی طالعته ليلاً ووضعته فی المکان الخاص به قد نقله ولدک الصغير الی غير مکانه المتعين له لما تأثرت نفسک بشیء هام لانه من الممکن ان تنقله الی مکانه الخاص بلا ضرر مالی أو نفسی يعود اليک من هذا الفعل، ولو فرضنا الماشی فی طريق احتمل السقوط فيه وتعرضه لضرر جسمانی وان کان غير مهم، لترک المشی فيه واخذ طريقاً آخراً فی مشيه الی مقصده. فهذا الاحتمال کما لو قطع بالموضوع نفسه فی الابتعاد عن الطريق الذی احتمل مواجهة الضرر فيه، وقس عليه سائر الموضوعات المحتملة التی يوليها المحتمل أهمية نفسية أو جسمية أو مالية. فعليه اذا کان موضوع الاحتمال وجود الله تبارک وتعالی لقد دهاک خسران لا يجبر، فعليه يؤثر هذا الاحتمال اثراً لا نجده عند اليقين بالحقائق والقضايا اليومية. ثم انظر الی النظام الحاکم فیالکون حيث تأبی المادة العمياء عن دعوی کونها هی الموجدة له، ومن العجائب المضحکة أو المبکية ما نراه من بعض الناس کيف يعرف مادة الکون بشیء لا يملک شعوراً ولا حرکة من نفسها ثم اذا راح الی تعليل النظام والحياة اللذين حارت البرية فيهما نجده يتخيل انهما انبثقا من نفس المادة، فکأنّ التناقض الرياضی والمنطقی يفقد معناه عند النظر الی مجموعة الکون التی ليست الا نفس اجزائه. وقد طالعت فی بعض الکتب المقلدة لبعض الغربيين ان القانون الرصين الذی لا يدخله ای غموض وريب، هو احتياج المعلول الی علة تدفعه، ولا قيمة لغيره مطلقة. ثم هذا الکاتب اورد الشک فی وجود الله تبعاً لزعيمه

الغربیایضاً ولم یلتفت الی المناقضة الصریحة بین اعتناق القانون فـی الاجـزاء والـشک فـی العلـة المطلقـة لمجموعة الکون.

ألیس الحکم بکل فرد استیعاباً، واستثناء الکل الذی هو عـین اسـتغراق کـل فـرد، لعبـاً بالافکـار المنطقیـة والریاضیة؟ أما یشبه مثل هذا الحکم علی جمیع الاجزاء ثم نفیه عن الکل، الحکم: بأنّ کل جزء من هذا الماء حار ولکن کله بارد؟ أو الحکم بان کل جزء من هذا القرطاس ابیض ولکن کله احمر؟

ولن یخفی علی الفکرة الریاضیة والعلمیة ان المناقشات الحرفیة أو الالتباسات العارضة لتفـسیر مفهـوم العلـة والمعلول لا تخرق قوام برهنة العلة والمعلول. ثم ارجع البصر فی ظاهرة الحرکة العامة للموجـودات، تجـد ان الحرکة لا تنطبق علی نفس المادة لان خروج المادة عن القوة الی الفعل لا یدخل فی صمیم المادة بتاتاً. فسل نفسک من الذی منح الحرکة والتطور للمادة؟ أکان هناک محرک أوجد الحرکة فی المادة، أو حدثت من تلقاء نفسها، أو المصادفة هیالتی اوجبت ان تتحرک المادة منتظمة؟ فان کانت تلقائیة دینامیکیة فلماذا تـرجح ان تظهر الموجودات بحرکتها الی الفعلیة وفی زمان متعین؟ والی این ذهبت هذه المصادفة ولا نری منها اثراً فـی صفحة الوجود؟ وهل تعود یوماً وتوجب أن یُستنتج من اضافة تفاحتین الی أُخریین خمس تفاحات؟ بل لـو فرضنا ان الحرکة تدخل فی صمیم المادة وهی مما تتقوم به المادة لکان احتیاجها الی المؤثر اوضح واشد مما لو کانت تخرج عن حقیقتها، ویتضح ذلک عندما نتأمل فی حقیقة الحرکة:

المعنی الجامع للحرکة بعد حذف المناقشات الحرفیة والمشاجرات الاصطلاحیة، هو خروج الشیء مـن القـوة الی الفعل ولا شک انه یستلزم تعاقب الافعال وتدرج الاحداث الخارجة من القوة، فـان شـئت ضـع التفاحـة موضع التأمل لتری انها نتیجة الوف من الاحداث المتعاقبة علی النواة الاصلیة، ولا شک فی ان الحادثة الثانیة وهی تبدل النواة الی ساق وجذر لم تشرع فی الحدوث الا بعد ان تم الفعل الاول وهو اجتماع النواة والتـراب والماء وغیرهما وقد تفاعلت کیماویاً. وکذلک الاحداث الثالثة والرابعة والخامسة لم تتحقق فـیسـبیل ایجـاد التفاحة الا بتحدید کل لاحق سابقه المنصرم. اذن فالحرکـة التـی اخـذناها جوهریـة للمـادة ودخیلـة فـی تجوهرها انما هی کون بعد کون. فالمادة بجوهرها کون بعد کون، وقد فرضنا ان کل کون سـابق یحـد الکـون اللاحق ابتداء وکل کون لاحق یحد السابق انتهاء، فاذا صدقت هذه الحقیقة صدقاً تجربیاً بان کـل جـزء مـن المادة کون محدود وصلنا الی نتیجة صادقة تجریبیة وهی ان المادة کلها محدودة، لان قولنـا کـل جـزء مـن المادة محدود الکون لا یحتاج فی اثبات محدودیة المادة کلها الی قضیة اخری کما سبق فی العلة والمعلـول.

وهناک ادله اخری علی اثبات وجود الله لا نحتاج الی تفصیلها.